# خطاب الله – سبحانه و تعالى – لغير العاقل في القرآن الكريم

## "دراسة بلاغية"

دكتور/ محمد عبد المجيد محمد
كلية الآداب والعلوم بوادي الدواسر
جامعة سلمان بن عبد العزيز

# خطاب الله – سبحانه و تعالى – لغير العاقل في القرآن الكريم

## "دراسة بلاغية"

دكتور/ محمد عبد المجيد محمد
كلية الآداب والعلوم بوادي الدواسر
جامعة سلمان بن عبد العزيز

الحـــديث في القرآن الكريم خصب الجوانب، لا يمكن أن ينتهي حسنه، أو تبلى جدتـــه، لـــذلك جعله أسلافنا النبراس المضيء، و الميزان الدقيق،والحكم الذي لا يتحيز إلـــى أحـــد، فلـــم يكن كتاب تشريع و لا دستور حكومة، بمقدار ما كان دائرة معارف، وتهذيب، وبلاغة و ذوق، وما شئت من علوم كانت أو ستكون على تلك الكرة الأرضية

لـــذلك وجـــدت نفـــسي أشتاق إلى البحث في هذا المجال مع تأكدي أنه طريق صـــعب المرتقى بعيد المنال، ولكن الذي يشفع لي نية خالصة في قلبي تريد أن تتعرف على أسباب مدى عظمة كلام الله – سبحانه وتعالى – الذي لا تنفد عجائبه.

فأخـــذت أتأمل في آياته مرة، وأعاود النظر في كلماته مرة أخرى، فلفت ذهني فيه قضية الخطاب، إلا أنني وجدت الخطاب عمومه، متشعب المسالك، متعدد السياقات.

ســـياق يخاطـــب الذين آمنوا:( يا أيها الذين آمنوا ....)ورد هذا الخطاب تسع وثمانين موضعا في القرآن الكريم[١].

وســـياق يخاطـــب النبـــي صـــلى الله عليه وسلم (يا أيها النبي.....) ورد هذا الخطاب في اثنا عشر موضعا في القرآن الكريم[٢].

وســـياق يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم (يا أيها الرسول.....) ورد هذا الخطاب في سورة المائدة الآية ٤١، والآية ٦٧.

---

(١) ينظـــر تفـــصيل هذه المواضع في كتاب:دليل الحيران في الكشف عن آيات القرآن،ترتيب الحاج صالح ناظم صـــ ٢٧٥-٢٧٨ .

(٢) ينظر تفصيل هذه المواضع في المرجع السابق صـــ ٢٧٩ .

وسياق يخاطب الإنسان: (يا أيها الإنسان.....) ورد هذا الخطاب في موضعين في سورة الانفطار آية ٦، و في سورة الانشقاق آية ٦.

وسياق يخاطب النفس المطمئنة: (يا أيتها النفس المطمئنة.....) ورد هذا الخطاب في موضع واحد في سورة الفجر آية ٢٧.

وسياق يخاطب الذين كفروا: (يا أيها الذين كفروا.....) ورد هذا الخطاب في موضع واحد في سورة التحريم آية ٧.

وسياق يخاطب أهل الكتاب: (يا أهل الكتاب.....) ورد هذا الخطاب في ستة مواضع في القرآن الكريم[١].

وسياق يخاطب نبي الله إبراهيم: (يا إبراهيم.....) ورد هذا الخطاب مرتين واحدة في سورة هود آية ٧٦، والثانية في سورة الصافات آية ١٠٤.

وسياق يخاطب السيدة مريم: (يا أخت هارون.....) ورد هذا الخطاب أربع مرات[٢].

وغير ذلك كثير وكثير من السياقات التي اشتملت على الخطاب، فلما وجدت الخطاب بعمومه يتناول هذه الكثرة الهائلة و يحتاج إلى كم كبير من الأبحاث حتى تستوفى هذا الخطاب يممت وجهي نحو نوع معين من أنواع الخطاب و هو" خطاب الله– سبحانه وتعالى _ لغير العاقل في القرآن الكريم ( دراسة بلاغية)".

واختارت الدراسة هذا النوع بخاصة من بين أنواع الخطاب لأسباب متعددة:

أولاها: أن خطاب الله لغير العاقل في القرآن الكريم فيه طرافة و جدة, لأنه خطاب جاء على غير العادة.

ثانيها: أن خطاب الله لغير العاقل في القرآن الكريم قد أخذ أشكالا متعددة، وصورا متباينة،فمما لاشك فيه أن وراءه أسرار بلاغية كثيرة، تتطلب دراسة تظهر بعض أسرارها.

---

(١) ينظر تفصيل هذه المواضع في المرجع السابق صـ ٢٨٠.

(٢) في الآية٤٢،٤٣،٤٥ من سورة آل عمران، وفي سورة مريم آية ٢٨.

ثالثها:أن خطاب الله لغير العاقل في القرآن الكريم، لم يكتب فيه أحد إلى الآن– فيما أعلم – ولم تقع عيني على دراسة بلاغية تتناول خطاب الله لغير العاقل في القرآن الكـريم، إلا الإمـام الزركـشي فـي كتابه البرهان، ذكر عنوانا تحت مسمى(خطاب الجمادات خطاب من يعقل).

وقد جاءت هذه الدراسة على منهج هو كالآتي:

أولا : حصرت الآيات التي تشتمل على خطاب الله لغير العاقل.

ثانـيا: حللـت الآيـة تحليلا بلاغيا، معتمدا على الوقوف عند كل لفظة، وسر التعبيـر بها دون مرادفها، ومن مجيئها نكرة أو معرفة، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها، ومـا توحي به من إيحاءات بلاغية، وما في الآية من بلاغة التركيب والتصوير البياني البديع الذي يؤثر في المعنى ويبرز جماله

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في : مقدمة و ثلاثة مباحث وخاتمة.

فأمـا المقدمـة : وهـي التي نحن بصددها، فذكرت فيها الموضوع وفائدته، وأسباب اختياري له، وخطة البحث و المنهج.

فالمبحث الأول: خطاب الله – سبحانه وتعالى – للأرض والسماء.

المبحث الثاني: خطاب الله – سبحانه وتعالى – للنحل.

المبحث الثالث: خطاب الله – سبحانه وتعالى – للجبال و الطير..

المبحث الرابع : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للنار.

وأما الخاتمة: ففيها أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

وبعـد فإن أكن وفقت فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فأرجوا الله تعالى أن يثيبنـي على نيتي وقصدي، وما بذلته من جهد، كما أسأله أن يغفر لي جرأتي على خوض هذا المجال، إنه ولي ذلك كله والقادر عليه.

{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

## المبحث الأول

## خطاب الله – سبحانه و تعالى – للأرض والسماء.

ورد هذا الخطاب في موضعين، الموضع الأول في سورة هود {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (٤٤)

**من الأسرار البلاغية في الآية:**

بدأت هذه الآية بالفعل الماضي المبني للمجهول( وَقِيلَ) و الواو التي سبقت هذا الفعل قيل: بأنها استئنافية[١]، و قيل بأنها عاطفة[٢]، ولعل الأرجح أن تكون عاطفة، لأنه لما أفاد قوله( فكان من المغرقين) وقوع الغرق الموعود به على وجه الإيجاز، انتقل الكلام إلى انتهاء الطوفان[٣].

وتأمل تعبير النظم القرآني بالفعل الماضي المبني للمجهول(قِيلَ ) وفي ذلك حذف للمسند إليه، وهو لفظ الجلالة (الله) .

ولعل السر وراء حذف المسند إليه هو الاختصار: لان فاعل القول وهو لفظ الجلالة (الله) ظاهر؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا من الله، و نحن نعلم إن الكلام الذي يحذف منه المسند إليه أخصر و أوجز من نظيره، كما أن المسند إليه الذي علم من القرنية والسياق و لم يوجد سر بلاغي يقتضي ذكره، يصبح ذكره حينئذ بمثابة الزيادة التي لا قيمة لها، فحذفه يصون الكلام ويبعده عن العبث من منظور البلاغة التي ترى أن ذكر الشيء المعلوم الذي لا يظهر لذكره فائدة، يعد عبثا في الحقيقة والواقع.،

ولذلك نجد الخطيب القزويني في بداية حديثه عن دواعي حذف المسند إليه يقول:"وأما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر"[٤].كما أن حذف المسند إليه خلاف الأصل فتتشوق النفس إلى ذكر الموجب له وفي ذلك دفع

---

(١) ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه، تصنيف محمود صافي،٢٧٣/٦ .

(٢) ينظر: إعراب القرآن وبيانه،محي الدين درويش،٣٥٩/٤

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٧٨/١٢.

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٤/٢.

إلى إعمال الفكر وتنشيط العقل، وإثارة الحس حتى يكشف السامع أسرار الحذف معولا على عقله.

ولعل أيضا من أسرار حذف المسند إليه في هذا المقام تعيين المسند إليه؛ لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة، وفي ذلك إشارة إلى قدرته وعظمته وكبريائه.

وتأمل دقة تعبير النظم القرآني، حيث عبر بلفظ (قِيلَ) أي بأدنى إشارة بعد هلاك أهل الأرض، و تدمير من في السهول والجبال من الخاسرين.

وقوله:( يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي). يقول الزمخشري: "نادى الأرض والسماء بما ينادي به الحيوان المميز، على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله(يَا أَرْضُ) (وَيَا سَمَاء) ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل، من قوله(ابْلَعِي مَاءكِ)،و (أَقْلِعِي) من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض، وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور".[١]

ونجد النظم القرآني قد اختار من بين أدوات النداء حرف النداء( يا) الذي يستعمل للبعيد، وفي ذلك إشارة إلى أنه" لما كان كل شيء دون مقام الجلال و الكبرياء والعزة بأمر لايعلمه إلا الله، دل على ذلك بأداة البعد".[٢]وقال بن هشام:" ينادى بها القريب توكيدا".[٣] ومن يتأمل نداء القرآن الكريم يجد أنه لم يقع فيه نداء بـ(أي) ولم يقع فيه كذلك نداء بالهمزة، وإنما استعمل في النداء(يا) وحدها دون غيرها؛لأنها أندى وأنفذ ولا ينادى اسم الله إلا بها، ولذلك يقول السيوطي"أصل حروف النداء(يا) ولهذا

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري،٢/٢٧١، وينظر:حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ١٨٤/٢، و ينظر: البحر المحيط لأبي حيان،١٦٠/٦

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للإمام البقاعي ٥٣٣١٦٠/٣

(٣) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ١٩/١-٢٠ .

كانــت أكثــر أحرفه استعمالا، ولا يُقدر عند الحذف سواها، ولا ينادى اسم الله – عز وجل – واسم المستغاث وأيها وأيتها ولا المندوب إلا بها، أو بـــ(وا)".[١]

ومـــن ينعم النظر في النظم القرآني السابق، يجده قد اشتمل عل ألوان بلاغية كثيـــرة، جمعت بين علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، فقوله (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ) أي اجذبـــي من غير مضغ إلى مكان خفي بالتدريج، و نلاحظ أن المفعول قد ذكر ولم يحذف وهو (مَاءكِ) ، ولعل السر وراء تعيين المبلوع، لئلا يعم، فتبتلع كل شيء على ظهـــرها مـــن جـــبل وغيره، ولذلك أفرد ولم يجمع فقال ( ماءك ) أي الذي تجدد على ظهرك للإغراق.[٢]

وجـــاء لفـــظ (مَـــاءكِ ) بالإفـــراد دون الجمع" لما كان في الجمع من صورة الاســـتكثار المتأتـــي عـــنها مقـــام إظهار الكبرياء والجبروت.[٣]و قيل: السر في إفراد المـــاء"الإشعار بأن هذا الماء لم يحصل من اجتماع المياه وتكاثرها بل هو نوع حصل بقدرته تعالى دفعة واحدة.[٤]

والخطـــاب فـــي قوله(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي)يقول الإمام الطبـــري" إن القـــول حقيقي في الموجود، و يحمل عليه خطاب المعدوم تخصيصا، ثم قال: إنه تخصيص من غير مخصوص.[٥]ولعل هذا الرأي يكون هو الراجح فليس هناك مانع عقلا ولا شرعا؛لأن كل شيء خلقه، وهو على كل شيء قدير.

وهـــذا مـــا يؤكد عليه الإمام الطبري فيقول:" ولا يجوز أن يحمل القول على المجـــاز لتأكـــيد الفعل بمصدره أو المصدر بالمصدر، إذ أن أمارة الحقيقة وهي حقيقة خاصة بجلال الله وصفاته المقدسة".[٦]و كذلك الإمام أبو حيان يلاحظ في هذه الأساليب

(١) الأشباه والنظائر في النحو ٢/١٣٠.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي ٣/٥٣٣

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ،١٢/٨١.

(٤) ينظر إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش،٤/٣٧٠.

(٥) ينظر تفسير الطبري، ١/ ٤٠٤:٤٠٦.

(٦) المصدر السابق،١/٤٠٦

قوة الكناية الدالة على المقدرة و انفعال المأمور في لحظة خارقة.[١]كما أن هذا الخطاب الـــذي وجهه المولى– عز وجل – إلى الأرض والسماء (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ) و (يَا سَـمَاء أَقْلِعِي) وهما من الجمادات، مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمـــادات، فعـــند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك،فلأن يكون أمره نافذا على العقلاء كان أولى.[٢]

وفـــي لفـــظ (ابْلَعِي ) استعارة تصريحيه تبعية؛ لأن أصل البلع:"اجتياز الطعام والـــشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم،[٣] و هو هنا مستعار لنشف الأرض، وفي لفظ (أَقْلِعِي) استعارة أيضا، حيث استعار إقلاع السماء لكف نزول المطر منها،لأنه إذا كف نزول المطر لم يُخلف الماء الذي غار في الأرض.[٤]

ولا يخفـــى أيضا المناسبة اللفظية بين (ابْلَعِي ) و (أَقْلِعِي) كذلك بينهما جناس نـــاقص، يسميه بعضهم المِضارعة، ويكون أنواعاً منها أن يختلف حرف في الكلمتين، بعد أن تتفق بقية الأحرف، كما أن هناك طباقاً بين لفظ (السماء) و (الأرض) .

كـــذلك يـــوجد مجـــاز مرسل في قوله (يا سماء؛ لأن الحقيقة: يا مطر السماء أقلعي، والعلاقة في هذا المجاز المجاورة؛ لن المطر مجاور للسماء.وإفراد لفظ (أرض) إشـــارة علـــى شـــمول هذا الماء الكل بحيث صار الكل بمثابة شيء واحد باعتبار هذا الشمول.

وأيـــضا إفـــراد (سماء) إشارة إلى أن المراد بها ههنا جهة العلو الذي لا يكتنه مـــداه إلا الأجـــرام العلوية[٥]، و تأمل دقة النظم القرآني، حيث اختار لاحتباس المطر (اقلعي) والإقلاع هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان المطر أو الفعل.

---

(١) ينظر: البحر المحيط،لأبي حيان،١/٤٤٦ ، ٢/٢٥٠.

(٢) ينظر: التفسير الكبير للرازي،١٧/١٨٧.

(٣) ينظر: لسان العرب ١/٤٨٥ (بلع ).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ١٢/٧٨.

(٥) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٤ /٣٧٠.

ونلاحـــظ أن الـــنظم القرآنـــي صرح بالمفعول أولاً في قوله (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَـــاءكِ) وبيـــنا السر في ذلك ولكن الجملة الثانية حذف المفعول فجاء التعبير هكذا، ويا ســماء أقلعــي لأنــه بين المراد في الحملة الأولى، فحذف المفعول من الجملة الثانية احتــرازاً عن الحشو المستغنى عنه،أو لعل سر الحذف أن تذهب نفس السامع في تخيل المفعول كل مذهب بتصور حال نزول المطر الشديد من برق ورعد ورياح وغير ذلك.

وعطفت جملة (وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي) على الجملة التي قبلها(يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ) للتوســط بين المالين، لأن الجملتين إنشائيتين لفظاً ومعنى، ولا يفوتنا أن نشير إلى هذه المقابلــة اللطــيفة في قوله(يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ) و(وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي ) حيث قابل بين الأرض والسماء، وبين البلع و الإقلاع، فهي مقابلة اثنين باثنين.

ونلاحــظ أيــضا دقــة التعبير في النظم القرآني، حيث قدم النداء على الأمر فقــال:(يَا أَرْضُ ابْلَعِي) و (وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي ) دون أن يقال: ابلعي يا أرض، واقلعي يا سماء،"جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح(١)

وبعد أن وجه المولى – عز وجل – خطابه إلى الأرض و إلى السماء بصيغة العاقــل، واســتجابت كلــتاهما للأمــر الفــصل، فبلعت الأرض ماءها، وكفت السماء وأمــسكت، جاء قوله (وَغِيضَ الْمَاء) أي نقص و نضب يقال:" غاض الماء يغيض، إذا قــل والمــراد به هنا: الماء الذي نشأ عن الطوفان ابتلعته الأرض في جوفها وغار من ســطحها.(٢)وهــذا التعبيــر (وَغِــيضَ الْمَاء) يدل على حصول المأمور به من السماء والأرض معــا، أي فامتــثلا مــا أمرا به ونقص الماء(٣)، وأيضا قوله (وَغِيضَ الْمَاء) يشتمل على لون بلاغي يسمى التعليل( فإنه علة للاستواء)(٤) ولم يصرح حل وعلا بمن غــاض المــاء، لــسبيل الكناية؛ لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلا من ذي قدرة فلا

---

(١) ينظر: التحرير و التنوير ١٢/٨٢.

(٢) ينظر:تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم٣/٣٦ ، وروح المعاني للألوسي١٢/٦١.

(٣) ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥ / ١٠١ ــ١٠٢.

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبه الزحيلي ٢ /٧٣ .

مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته هو الذي غاض الماء. كما أن هذا التعبير (وَغِيضَ الْمَاء ) يشتمل على لون بلاغي آخر يسمى الإشارة[1] فإنه عبر به عن معـــان كثيرة؛ لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها، فينقص ما على وجه الأرض.[2]

**الموضع الثاني:**

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}

{فَقَــضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} الآيتان (١١) (١٢) سورة فصلت.

**من الأسرار البلاغية في الآيات:**

بـــدأت هذه الآيات بحرف العطف (ثم) الذي يدل على التراخي والمهلة، وهذا الحـــرف يدل أيضا "على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطـــوف علـــيها،فإن خلق السموات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم، فجـــيء بحـــرف الترتيب ألرتبي، بعد أن قضى حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفـــي المقتـــضيان حقهما،و ليس هذا بمقتضى أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض و لا مقتضيا أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض.[3]

ثـــم جـــاء التعبيـــر بالفعـــل الماضـــي (اسْتَوَى) وهو الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج،كما أن الاستواء تمثيل لتعليق إرادة الله – تعالى – بإيجاد السموات[4]

---

(١) وهـــو أن يكـــون اللفظ القليل دالاً على الكثير من المعاني حتى تكون دلالة اللفظ بمثابة الإشارة باليد والإيماء بالحاجب والعين فعنها تشير بحركة واحدة سريعة إلى أشياء كثيرة تستوعب العبارات الطويلة. ينظر: بديع القرآن لابن ابي الإصبع المصري صـــ٨٢ .

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي ٦٧/١٢ .

(٣) ينظر: التحرير و التنوير ٢٤٥/٢٤ .

(٤) ينظر: المصدر السابق ٢٤٥/٢٤ .

وقيل: إن معنى (وَهِيَ دُخَانٌ ) أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي أن السماء كونت من ذلك الدخان، كما تقول: عمدت إلى هاته النخلة، وهي نواة، فاخترت لها أخصب تربة، فتكون مادة السماء موجودة قبل الأرض(١)، وبناء على ذلك يكون قوله (وَهِيَ دُخَانٌ ) تشبيهاً بليغاً أي وهي مثل الدخان.

كما أن قوله (دخان) استعارة لأن أصل الدخان: ما أرتفع من لهب النار، وقد استعير هذا المعنى لما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وخص – سبحانه – الاستواء إلى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجها إليها و إلى الأرض، كما يفيد قوله: (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها(٢).

وفي قوله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ) إيجاز بالحذف والتقدير: ثم استوي إلى خلق السماء، ثم عقب هذا الاستواء: (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ). ونجد الفاء التي سبقت الفعل الماضي (فَقَالَ ) عاطفة، وهي تدل على الفور والترتيب، وجيء بالمسند فعلا وهو (قال) لما فيه من الإيجاز والاختصار، والضمير في (لها) يعود إلى السماء.

ومعنى (ائْتِيَا) إفعلا ما آمركما به ، وقيل المعنى:"ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف،ائتي يا أرض مدحورة قرارا و مهادا لأهلك، وائتي يا سماء مقببة سقفا لهم(٣)، و بعضهم قال بأن المقصود من هذه الصيغة (ائْتِيَا ): تصوير عظمة القدرة الإلهية و نفوذها في المقدورات دقت أو جلت.(٤)

وقوله (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ) هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما و أن امتناعهما لتأثير قدرته محال، كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه

---

(١) ينظر: المصدر السابق ٢٤٦/٢٤ .

(٢) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٣١،٢٣٢/١٢ .

(٣) ينظر: الكشاف ٤٤٦/٣، و فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٣٢/١٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤٤٥/٣ ، و التفسير الكبير للرازي ٩٢/٢٧ ،و البحر المحيط لأبي حيان ٤٨٦/٧، و إرشاد العقل السليم ٥٠٤/٥.

طــوعا أو كــرها، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين[١]، كذلك قوله: (طَــوْعًا أَوْ كَــرْهًا) مــصدران وقعــا حالين من ضمير(ائْتِيَا) أي طائعين أو كارهين، ووضع المصدر موضع الحال للمبالغة.

وهــذا التعبير:(طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) فيه إيجاز بالحذف والتقدير: (ائْتِيَا طَوْعًا) وإلا أتيــتما كــرها، وهذا القول أيضا كناية عن عدم البدّ من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى، فكلمة ( طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ) جارية مجرى الأمثال.[٢]

وتتجلى بلاغة النظم القرآني في التعبير بقوله (طَائِعِينَ ) ولم يقل مثلا طائعتين علــى اللفــظ أو طائعــتان على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون، وإنما قال طائعين، والعلة في ذلك: لما جعلت مخاطبات و مجيبات و وصفت بالطوع و الكره، قيل طائعين في موضوع طائعات، وإنما جاء قوله (طَائِعِينَ) بصيغة الجمع؛ لأن لفظ السماء يشتمل علــى ســبع سموات، وقيل – والله أعلم – أنه إظهار للخضوع و العبودية، وكأن كل جزء من أجزائها قال ذلك القول، فلفظ (طَائِعِينَ ) يصور الإذعان المطلق جرسا و لفظا ودلالــة وجمعــا، دلالة الاهتمام البالغ بالمبادرة إلى الانقياد[٣]، وأما كونه بصيغة جمع المذكر، فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقي.

ويجــوز أن يكــون قول السماء والأرض في قوله تعالى (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) مــستعارا الدلالة سرعة تكوينهما، لشبههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية فإنه لا يتردد ولا يتلكأ، على طرقة الاستعارة المكنية والتخييل[٤]

ثــم فــصل – سبحانه وتعالى – بديع صنعه في خلق السموات فقال (فَقَضَاهُنَّ سَــبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ) أي: ففرغ من خلقهن و تسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع في مقدار يومين، والضمير في قوله (فَقَضَاهُنَّ) إما راجع إلى السماء على المعنى

---

(١) ينظر: الكشاف ٤٤٦/٣ ،و البحر المحيط لأبي حيان ٢٨٩/٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤٧/٢٤.

(٣) ينظر: الأساليب الإنشائية و أسرارها البلاغية في القرآن صـــ ٥٤.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤٨/٢٤.

لأنهـــا سبع سموات، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات، والفرق بين النصبين أن أحـــدهما علـــى الحال والثاني على التمييز[1]، وتأمل دقة النظم القرآني، حيث عبر بقـــوله (فَقَضَاهُنَّ) والقضاء يعني: الإيجاز الابداعي؛ لأن فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع.

وقـــوله (فِييَوْمَـــيْنِ ) أي إن خلـــق السموات في يومين قبل الأيام الأربعة التي خلقـــت فـــيها الأرض و مـــا فيها، وهذا التعبير كناية عن قصر المدة التي خلقت فيها الـــسموات، كما أن قوله (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ) فيه إيضاح بعد إبهام؛ لأن قـــوله هذا توضيح و تفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه، لا أنه فعـــل متـــرتب على تكوينهما، ولم يذكر مقدار زمن خلق الأرض وخلق ما فيها اكتفاء بذكره في بيان تقديرهما[2]

وقـــوله (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ) أي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وما فيها من الملائكة، وقيل المعنى: أوحى فيها ما أراد وما أمر به، والإيحاء هنا قد يكون بمعنى الأمر.

كمـــا فـــي قـــوله تعالـــى( بأن ربك أوحى لها ) [3]، وقوله ( وإذا أوحيت إلى الحواريـــين) [4]أي أمرتهم، وهو أمر تكوين[5] وها هو الطاهر بن عاشور يبين بأن لفظ الوحـــي يطلق على معان كثيرة: فقد يطلق لفظ الوحي ويراد منه: الكلام الخفي، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من يراد حصوله عنده دون قول، ثم يتوسع فيه، فيطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحُها ويطلق على تسخير

---

(1) ينظر: التفسير الكبير ٩٢/٢٧ ، والتفسير الوسيط ٣٣٣/١٢.

(2) ينظر: روح المعاني ١٠٣/٢٤.

(3) سورة الزلزلة، الآية ٥.

(4) من الآية١١١ من سورة المائدة.

(5) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٣٣/١٢.

الله تعالـــى بعــض مخلوقاته لقبول أثر قدرته. ثم بعد ذلك قال: والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته[١].

وقــوله( أمـــرها) أي: ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك أو شأنها وما يصلحها[٢].

وفـــي قـــوله (أمرها) إيجاز قصر حيث عبر بكلمة الأمر بكل ما فعله في كل ســـماء من خلق شمسها ونجومها وأفلاكها وما فيها من أشياء لا يعلمه إلا هو، كل ذلك عبـــر عنه بكلمة واحدة( أمرها) و هذا من إيجاز النظم القرآني، حيث إن كل لفظة فيه تحمل من المعاني الكثير و الكثير.

وتأمـــل هذا الالتفات الجميل الذي جاء في قوله (وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) فهو التفات من الغيبة إلى التكلم، فقد أسند التزيين إلى ذاته لإبراز مزيد العناية بالأمر.

وفـــي قـــوله (بِمَصَابِيحَ) استعارة؛ لأن المصابيح: جمع مصباح، وهو ما يوقد بالنار في الزيت للإضاءة و المراد بالمصابيح: النجوم، واستعير لها المصابيح لما يبدو مـــن نـــورها؛ ولأنه يقع الاهتداء بها كقوله تعالى (وبالنجم هم يهتدون) [٣]، وفي قوله (وحفظا) أيجاز بالحذف لأن (حفظا) منصوب بإضمار فعل والتقدير: وحفظناها حفظا.

وقـــوله ( ذلـــك ) إشارة إلى جميع ما ذكر، أو أوجده بقدرته وعزته واحكمه بعلمـــه، ولعـــل اســـم الإشـــارة (ذلك) يشير إلى أن ما سبق أمر باهر، ولذلك نبه على عظمـــته بقـــوله صـــارفا الخطاب إلى صفتي العز والعلم،إعلاما بأنهما أساس العظمة ومـــدارها، وفي ختمة الآية بهذين الوصفين (العزيز العليم) بشارة للأمة التي خوطبت بهمـــا أنـــه يؤتيها من عزه وعلمه لا سيما بالهبة وما شاكلها من الطبائع وغيرها ما لم يؤت امة من الأمم قبلها [٤].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٥٠ ، ٢٥١.

(٢) ينظر: الكشاف ٤٤٧/٣ ، و البحر المحيط ٢٩٢/٩.

(٣) سورة النحل.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٦/ ٥٥٨.

## المبحث الثاني

## خطاب الله – سبحانه و تعالى – للنحل.

ورد هذا الخطاب في قول الله تعالى {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٦٨) (٦٩) سورة النحل

**من الأسرار البلاغية في الآيات:**

بدأت هذه الآيات بقوله (أَوْحَى) والوحي في معناه العام الخفاء، ولذلك جاء في أساس لبلاغة للزمخشري: أوحى إليه وأومئ بمعنى وحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره[١]، وجاء أيضا في المفردات للراغب الأصفهاني:" أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبالإشارة ببعض الجوارح والكتابة".[٢]

وهنا سؤال يفرض نفسه: هل وحى الله للنحل حقيقة أم مجاز؟

من ينعم النظر في كلام الإمام الزمخشري يجده يحمل الإيحاء إلى النحل من باب الحقيقة، ولذلك يقول: "والإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فتأنقها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل على أن الله تعالى أودعها علماً يذلك وفطنها كما أودع أولي العقول عقولهم".[٣]

وبعض العلماء يميل إلى أن الوحي إلى غير العاقل من باب التسخير يقال: "أوحى الله إلى الجماد كذا وسخره له وأجراه عليه كأنما ألقى إليه أمر فامتثله".[٤]وقد

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري ( وحى ).

(٢) المفردات صـ ٨٠٩ ، ٨١٠.

(٣) الكشاف ٢/٤١٧.

(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم ٢/٦٣٤.

مال إلى هذا الرأي الآلوسي، حيث فسر الإيحاء إليها بتسخيرها لما أريد منها، ومنع أن يكون المراد حقيقة الإيحاء، لأنه إنما يكون للعقلاء، وليس النحل منها".(١)

ولعل الرأي الراجح – والله أعلم – أن يكون الوحي إلى النحل من باب الحقيقة علـى وجـه وهـو اعلم بها، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه كما صرح بذلك الإمام الزمخـشري، حتـى وإن كنا نجهل هذه الحقيقة بل إن الجهل بهذه الحقيقة أدعى لعدم صرف الكلام إلى المجاز.

والـواو التـي سبقت الفعل ( وحى) قيل: إنها استئنافية، (٢)والأرجح أن تكون عاطفة على ما قبلها، لتتساوق الدلائل على عجائب صنعته تعالى وبدائع قدرته(٣)، فهو "عطف عبرة على عبرة ومنة على منة." (٤)

وتأمـل دقـة النظم القرآني حيث افتتحت الجملة بالفعل(أوحى) دون أن تفتتح باسـم الجلالـة مـثل جملة (والله أنزل) (٥) لما في (أوحى) من الإيحاء إلى إلهام تلك الحـشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا، وعملا متقناً، وهندسة في الجبلة، فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلا على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنَّة منه.(٦)

وجـاء المسند فعلاً (أوحى) لغرض بلاغي وهو إفادة تقييد الحدث الدال عليه الفعـل بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار، والفعل هنا فعل مضي، أفاد حصول الإيحاء فـي الـزمن الماضي، فمجيء المسند فعلاً أفاد حصول الحدث وهو الإيحاء في زمن معين بإيجاز وهذا محط النكتة البلاغية، فلو أتى بالمسند اسماً لدل على الحدث فقط، أما الـزمن فيحتاج للدلالة عليه إلى لفظ آخر يذكر مع الاسم، وبهذا يتبين لنا أن الفعل يفيد المراد مع الإيجاز فضلاً عن أن الفعل يفيد تجدد الحدث في المسند، بمعنى حصوله بعد

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٨١/١٤.

(٢) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٣٤٩/٧.

(٣) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٣٣١/٥.

(٥) من الآية ٦٥ من سورة النحل.

(٦) ينظر التحرير والتنوير ٢٠٤/١٤ ، ٢٠٥.

العـــدم بلا مراعاة الاستمرار فيه؛ لأن الزمن جزء مفهوم الفعل، والزمن متجدد متغير فلـــزم لـــذلك في الحدث المقارن له، ومن هنا كان الفعل دالاً على التجدد بالوضع فإذا أريـــد إفـــادة التجدد في المسند جيء به اسماً لدل على الثبوت فقط، ثم أتى بالمسند إليه معرفاً بالعلمية في قوله (وَأَوْحَى رَبُّكَ) للقصد إلى إحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسمه المختص به، وكأن الإيحاء لا يصدر ولا يكون إلا من رب العالمين.

أضـــف إلى ذلك أن مجيء المسند إليه هنا معرفاً بالعلمية، ليناسب المقام الذي تتحدث عنه هذه الآيات، فالمولى تعالى بعد بيان وعد المؤمنين بالجنان ووعيد الكافرين بالنيران، عاد تعالى إلى إثبات قدرته مع أن كل شيء في الوجود ينطق بقدرته وعظمته ووجـــوده ووحدانيته بدلائل حسية مشاهدة لكل راء أمامه صباح مساء من إنبات الزرع والـــشجر والمطـــر وإخراج اللبن من الأنعام، وإخراج العسل من بطون النحل إلي فيه شفاء للناس.

فالتعبيـــر بلفظ الجلالة (ربك) أعون على ترسيخ ذلك في ذهن السامع،فاختيار الـــنظم القرآنـــي للفظ (ربك) دون لفظ الجلالة (الله) لأن الرب يعني المالك لكل شيء والمـــستحق والـــصاحب لـــه والقائم على كل شيء[1]، فضلاً عن أن لفظ (رب) يوحي بمعنى العناية والرعاية والتربية والإحسان المناسب لمقام ذكر النعم وإضافته إلى كاف الخطاب تجعل المخاطب في قلب الحوار، وتخصه بالعبرة وتلفته بشدة إلى التدبر.

وقـــوله (إلـــى الـــنحل) أي أوحى ربك إلى النحل بالإلهام، قيل:" إن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فبعضها بالتسخير المجرد كالجمادات، وبعضها بالإلهام والتـــسخير كالـــنحل والعنكـــبوت و بعضها بالتسخير والإلهام والعقل المتفق على نظام واحد كالملائكة وبعضها بكل ذلك والفكر والتمييز والأعمال المختلفة المبنية على الفكر كالإنسان".[2]

---

(1) ينظر : لسان العرب لابن منظور ٥ / ٩٥ ( ربب).

(2) ينظر : نظم الدرر ٤ / ٢٨٥ ، ٢٨٦.

ولمــا كان في الإيحاء معنى القول أتى بـــ (أن) المفسرة[1]، فقال: (أَنِ اتَّخِذِي مِــنَ الْجِـبَالِ بُــيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) أي ألهمها الله وأرشدها أن تتخذ من الجــبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر ومن عرائش الناس التي يصنعونها لها في البيوت والكــروم، وإذا نفرت نحلة من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عــودها ردوها على وكرها على ألحان الموسيقى والطبول وكل ذلك دليل على الذكاء والكياسة.[2]

وقــوله: (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) يشتمل على صورة من صور الإطناب وهي صورة الإيضاح بعد الإبهام؛ لأن قوله السابق (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ) إجمال وإبهام فيه تشويق وترغيب للنفس لمعرفة ما هو الإيحاء الذي أوحـــى الله إلـــى الـــنحل، ثم يأتي الإيضاح والتفصيل وقد حصل التلهف والتشوق من الـــسامع (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) وبذلك يتمكن المعنى في النفس فضل تمكن، وكأن شعورها به أتم.

وقد فصلت جملة (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) عن الجملـــة التي قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، حيث إن جملة (أن اتخذي) بمثابة جـــواب لـــسؤال اقتضته جملة (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ) فكأن سائلا سأل وبأي شيء أوحـــى ربـــك، فأجـــيب بقوله (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) وهكـــذا نجد أن التعبير بالفصل والوصل في القرآن الكريم منزلة بلاغية سامية، حسب استدعاء الحال و اقتضاء المقام.

وتأمـــل دقة النظم القرآني في استعماله حرف الجر (من) دون (في) في قوله (مِـــنَ الْجِـبَالِ) لن من هنا تبعيضية فالمولى تعالى أراد أن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها. [3]

---

(١) ينظر : الكشاف ٢/ ٤١٧.

(٢) ينظر : التفسير المنير ١٧١/١٤.

(٣) ينظر : الكشاف ٢/ ٤١٧ ، والبحر المحيط ٦/ ٥٥٩.

كذلك دقة التعبير بفعل الأمر(اتخذي) دون (ابني) مثلاً، لأن فعل الأمر(اتخذي) يـشمل بـناء البيوت لها و تتخذها هي مسكنا و في هذه الحالة لا تكون هي التي بنتها وإنمـا بنـيت لها ثم أقامت فيها، وبذلك يكون فعل الأمر( اتخذي ) يشمل البيوت التي أقـيمت لهـا والبيوت التي أقامتها بنفسها أما لو قال (ابني) لكان الأمر مقصورا على البـيوت التـي تبنـيها هـي، و يؤيد ما ذهبنا إليه من بلاغة النظم القرآني من اختيار ( اتخـذي ) دون ( ابني ) قول الإمام الرازي:" اعلم أن النحل نوعان: النوع الأول: ما يـسكن فـي الجبال والغياض و لا يتعهدها أحد من الناس. و النوع الثاني: التي تسكن بيوت الناس و تكون في تعهدات الناس، فالأول هو المراد بقوله (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ ، و الثاني هو المراد بقوله (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) وهو خلايا النحل ."[1]

فالفعل ( اتخذي ) يجمع بين النوعين، وقد تعرض الإمام لفعل الأمر( اتخذي ) وذكر فيه رأيين: الرأي الأول: قال:" قد يراد به حقيقته؛ لأن بعض الناس يقول لا يبعد أن يكـون لهـذه الحيوانات عقول و لا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي. و الـرأي الثاني: قال: ليس المراد به حقيقته بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز و طبائع توجب هذه الأحوال ."[2]

وفـي قوله (بُيُوتًا ) استعارة أشار إليها الشيخ زادة بقوله" أن البيت هنا مستعار لمحـل النحل، تشبيها له بما يبنيه الإنسان و يبيت فيه من الأبنية في اشتماله على حسن الصنعة و صحة القسمة"[3]

وبـذلك يكـون قد استعير لفظ البيت لمحل النحل، استعارة تصريحية أصلية، حـيث شبه محل النحل بالبيت بجامع حسن الصنعة و صحة القسمة و الإحكام في كل، ثـم حذف المشبه و استعمل لفظ المشبه به في المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية

---

(1) التفسير الكبير ٢٠ /٥٧.

(2) المصدر السابق ٢٠ /٥٧.

(3) حاشية الشيخ زادة ٢٩٦/٥.

الأصلية، وهذا التصوير الاستعاري يوحي لنا على ما في محل النحل من الصنائع العجيبة.

ولما كان أهم شيء للحيوان بعد الراحة من همّ المقيل الأكل، ثنى به فقال: (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أي: امتصي من رحيق جميع الثمار ما تشائين حلوة كانت أو مرة أو بين ذلك، وإن كان أبو حيان يصرح بأن"(من) في قوله (مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) للتبعيض فتأكل من الأشجار الطيبة والأوراق العطرة أشياء يولد الله منها في أجوافها عسلاً".[1]

وقد بدأت هذه الجملة بحرف العطف ( ثم) التي تفيد المهلة و التراخي، و السر في استعمال هذا الحرف دون حرف العطف ( الفاء) مثلاً، "أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت لسكناها لتطلب بعد ذلك الرزق في مظانه." [2]

والأمر في ((ثُمَّ كُلِي ) قيل: أنه للتسخير، أي سخرها أن تأكل من كل الثمرات وهذا هو المصرح به صاحب التفسير المنير فقال:"و هذا إذن أمر قدري تسخيري أن تأكل من كل الثمرات[3]، و يقول الآلوسي" إن الأمر للتخلية والإباحة [4]، ولعل الأرجح أن يكون الأمر حقيقياً للوجوب و الإلزام.

كما أن لفظ ( الثمرات ) مجازاً مرسلاً، علاقته اعتبار ما سيكون؛ لأن الثمرات: جمع ثمرة، وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة مثل التمر والعنب، والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق(الثمرات) في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة اعتبار ما سيكون."

كما أن قوله (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا) وقوله (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) فيه طباق وهو الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة؛ لأنه أورد في الأول (من) التبعيضية

---

(1) ينظر : البحر المحيط ٥٦٠/٦.

(2) ينظر : إعراب القرآن و بيانه ٥/ ٣٣١.

(3) التفسير المنير ١٧٢/١٤.

(4) روح المعاني ١٨٣/١٤.

وفـــي الثانـــي (كل) وفيه إرشاد لها إلى وجوه العمل و ترتيبه، حيث سخرها الله؛ لأن تسوي البيت ثم تأخذ من كل ثمرة جزءاً للجرس للعسل [١].

ولمـــا أذن لهـــا فـــي ذلك كله و كان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون إلا بمـــشقة عظـــيمة في معاناة السير إليه، نبه على خرقة للعادة في تيسيره لها فقال تعالى (فَاسْــلُكِي سُــبُلَ رَبِّــكِ ) أي : إذا أكلت من الثمار فاسلكي الطريق التي ألهمك الله أن تسلكيها في عمل العسل، أو في طلب تلك الثمرات و العودة بسلام إلى الخلايا[٢].

وجـــاء العطف هنا بالفاء في قوله فاسلكي؛ لأن المراد: إذا أكلت فاسلكي سبل ربك أي طرق ، والمراد بالسبل: مسلكها في العود، وأضاف السبل إلى رب النحل من حـــيث أنه تعالى هو خالقها و مالكها[٣]، وفي لفظ ( السبل ) استعارة تصريحية أصلية، حـــيث استعار السبل للطرق التي ألهمها ربها في عمل العسل و استعمل لفظ المشبه في المـــشبه بـــه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، و صـــرح بذلك الإمام الآلوسي فقال:" السبل مجاز عن طرق العمل و أنواعها أي: فاسلكي الطرق التي ألهمك ربك في عمل العسل." [٤]

وآثـــر النظم القرآني هنا لفظ (رب) دون أي اسم من أسماء الله؛ لأن ذلك هو المناســـب للـــسياق و المقام؛ لأن هذه الآيات تتحدث عن قدرة الله و وجوده ووحدانيته، فكان من المناسب التعبير بلفظ (رب) ليذكر الناس بأن الله هو الذي رباهم وأنعم عليهم بـــنعم لا تقـــدر ولا تحصى، كما أنه " أشار باسم الرب إلى أنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها لما اهتدت إلى ذلك".[٥]

---

(١) ينظر : حاشية الشيخ زادة ٥ /٢٩٧.

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري ٢ / ٤١٨ ، و التفسير المنير ١٤ /١٧٢.

(٣) ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦٠.

(٤) روح المعاني ١٤/ ١٨٣.

(٥) نظم الدرر ٤ / ٢٨٦.

وقوله(ذللا) فيه قولان: الأول ،أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله ( وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) [١]

والثاني، أنه حال من الضمير (فاسلكي) "أي و أنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة"[٢]

ثم ذكر تعالى على جهة تعديد النعمة والتنبيه على المنة، ثمرة هذا الاتخاذ والأكل والسلوك فقال :(يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ)، أي يخرج من بطونها بعد أكلها من كل الثمرات شراب هو العسل مختلف ألوانه على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها، وهذا كلام مستأنف عدل به من خطاب النحلة إلى خطاب الناس.

وفصلت جملة (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ) عن الجملة التي قبلها وهي قوله (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) بكمال الانقطاع بلا إيهام، حيث إن الجملة الأولى وهي قوله (فَاسْلُكِي) إنشائية لفظاً ومعنى، وجملة (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ) خبرية لفظاً ومعنى، ومن الجدير بالذكر، أن هذه الجملة قد بدأت بصورة من صور الالتفات وهي التفات من الخطاب إلى الغيبة ، ولو جاء الكلام على النسق الأول لقيل من بطونك، وإنما عدل النظم القرآني من الخطاب إلى الغيبة لنكتة بلاغية وهي أنه ذكر للبشر العسل وأوصافه وألوانه المختلفة، وأخبرهم أن فيه فوائد شتى لهم، ليلفت انتباههم إليه، ولو قال : من بطونك لذهبت تلك الفائدة التي حققها خطاب الغيبة.

وتأمل التعبير بالفعل المضارع( يخرج) حيث أتى المسند فعلاً مضارعاً، وهذا يفيد تجدد خروج العسل واستمراره من بطونها،و لذلك عبر عنه بالفعل المضارع لتحقيق هذه الإفادة وهي التجدد والحدوث أو التجدد الاستمراري، وذكر الله المقر الذي

(١) من الآية ١٥ من سورة الملك.

(٢) ينظر : التفسير الكبير ٢٠ /٥٨.

يخـرج مـنه الشراب وهو قوله (من بطونها) وخص البطون" لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن"(١).

وقـوله ( شـراب ) يعني العسل، و سمي بذلك؛ لأنه يشرب، حتى قيل: أنه لا يقـال( أكلـت العسل ) و إنما يقال( شربت العسل )، وعبر الله تعالى عن العسل باسم الـشراب دون العسل، لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنة، وليـرتب علـيه جملـة (فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ )،"وسمي شراباً، لأنه مائع يشرب شرابا ولا يمضغ"(٢)، وتنكير (شفاء) "إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لن فيه بعض الشفاء وكلاهما محتمل"(٣).

وفي قوله: (فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ) استعارة تبعية في الحرف، أومأ إليها ابن عاشور بقوله" و جعل الشفاء مظروفاً بالعسل على وجه الظرفية المجازية وهي الملابسة للدلالة علـى تمكـن ملابسة الشفاء إياه و إيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شراب العـسل. فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف؛ لأن الظـرف يكـون أوسع من الظروف غالباً، شبه تخلف المقارنة في بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظرف و مظروفاتها"(٤).

وجاء الكلام في نهاية الآية بقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) مؤكد بأكثر مـن مؤكد؛ لأن هذه الآية تتحدث عن قدرة الله و عجيب صنعه في خلقه وفي ملكوته، فكان السياق يستدعي هذا التأكيد، ليزيل أدنى شك عند الذين لا يؤمنون بأن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له.

---

(١) تفسير القرطبي ٩ / ١٣٥.

(٢) التحرير و التنوير ١٤/٢٠٩.

(٣) ينظر : الكشاف ٢ /٤١٨.

(٤) التحرير و التنوير ١٤/٢٠٩ .

وتأمــل إيجاز القصر في قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) أي أن فــي ذلك الذي ذكرناه لكم من أمر النحل وغيره لآية وعبرة ودلالة جلية على وحدانية الله.

## المبحث الثالث

## خطاب الله – سبحانه و تعالى – للجبال والطير.

ورد هذا الخطاب في قول الله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} (١٠) {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (١١) سورة سبأ

**من الأسرار البلاغية في الآيات:**

بدأت هذه الآيات بأسلوب إنشائي غير طلبي وهو القسم (ولقد) لأن اللام، لام القسم، وقيل إن اللام جواب للقسم المحذوف[١]، وتقدير القسم: وعزتنا وما ثبت لنا من الإحاطة بصفات الكمال بالاتصاف بالحمد، لقد أعطينا داوود عطاء عظيماً، دالا على نهاية المكنة لنا من العظمة. [٢] و جاء الكلام بالقسم، (وقد) التحقيقية لأن التحقيق فيه معنى التأكيد، وهذا ما أشار إليه الزركشي في كتابه البرهان عندما قال:" (قد) فإنها حرف تحقيق وهو معنى التأكيد"[٣]، فجاء الكلام مؤكداً بهذه الموكدات؛ لأنه يواجه مخاطباً منكراً لوقوع البعث فكان من المناسب للسياق للتأكيد، وهذا القسم يوحي بمدى فضل الله ومنته على سيدنا داوود، أضف إلى ذلك التوبيخ والتنديم لهؤلاء الذين ينكرون البعث.

وقوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)، اختلف في هذا الفضل على أقوال:فقيل " النبوة، وقيل الزبور، وقيل القوة كما في قوله تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ )[٤]، وقيل تسخير الجبال في قوله تعالى (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ) ، وقيل التوبة، وقيل الحكم بالعدل كما في قوله تعالى (يا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

(١) ينظر : إعراب القرآن و بيانه ٨/ ٧٣.

(٢) ينظر : نظم الدرر ١٥٧/٦.

(٣) البرهان للزركشي ٢ /٤١٧.

(٤) من الآية ١٧ من سورة ص.

بِالْحَقِّ ) (١)، وقيل هو إلانة الحديد، وقيل حسن الصوت، والأولى أن يقال:" هذا الفضل وما ذكره الله بعده من قوله ( يا جبال ) إلى آخر الآية.(٢)

وتأمل التعبير بالفعل الماضي(آتَيْنَا ) أفاد حصول الحدث وهو الإتيان في زمن معــين بإيجــاز، وبهذا تبين لنا دقة التعبير القرآني؛ لأن الفعل يفيد المراد مع الإيجاز، ووضع الاسم موضعه يذهب بهذه النكتة البلاغية وهي الاختصار والإيجاز، كما صرح باسم المؤتى وهو سيدنا (داود) ، والتصريح به من باب التخصيص، أي أن هذا الفضل خــاص بسيدنا داود فقط، أضف إلى ذلك أن الله تعالى أعطى سيدنا داود اسماً ليس فيه حــروف اتــصال، فــدل علــى أنــه قطعــه عن العالم بالكلية وشرفه بالطاقة الخفية والجلية، فإن بين الاسم والمسمى مناسبة لا يفهمها إلا أهل الحقيقة. (٣)

والتعبيــر بقــوله (مِــنَّا) يوحــي بأنـــه كان بلا واسطة، لتأكيد فخامته الذاتية الإضــافية، كمــا فــي قــوله (وآتيــناه من لدنا علماً) وتقديم سيدنا داود على المفعول الــصريح، للاهــتمام بالمقدم والتشوق إلى المؤخر، ليتمكن في النفس عند وروده فضل تمكن (٤)

وقــوله: (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ) فيه إيضاح بعد إبهام؛ لأن قوله السابق (وَلَقَــدْ آتَيْــنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ) إبهام و إجمال فيه تشويق و ترغيب للنفس لمعرفة هذا الفــضل الــذي أعطـــاه إياه لسيدنا داود، ثم يأتي الإيضاح والتفسير" فيتمكن الخبر في نفوس السامعين ويركز في عقولهم، و قوله (يَا جِبَالُ ) إما أن يكون بدلاً من (فَضْلًا) ، وأما من (آتَيْنَا) بتقدير قولنا: يا جبال أو قلنا يا جبال(٥).

وتأمــل خطـــاب الله للجــبال، حيث نزلها منزلة العقلاء (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ) "وهــذا الخطاب الذي صدر من الله تعالى إلى الجبال التي لا تعقل فيه الفخامة التي لا

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة ص.

(٢) ينظر : تفسير القرطبي ١٤/٢٦٤ ، و فتح البيان ١١/١٦٧، و روح المعاني ٢٢/١١٢.

(٣) ينظر : تفسير روح البيان ٧/٣٦٥.

(٤) ينظر : روح المعاني للآلوسي ٢٢ /١١٢.

(٥) ينظر : الكشاف ٣ /٢٨١.

تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزلة العقلاء الـــذين إذا أمـــرهم أطاعـــوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا و أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد ناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته"[١]، وتأمل بســلطان الإلهية حيث خاطب (الجبال) التي هي أغلظ الأرض وأثقلها فبادرت بالإجابة وامتــثلت لأوامــره، وهذا الخطاب (يا جبال) على حقيقته لأن خطاب الله تعالى صالح لكل الكائنات؛ لأنه خالقهم وموجدهم.

وقــوله (أَوِّبِي مَعَهُ) أي سبحي، ومعنى "تسبيح الجبال، أن الله تعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود" [٢].

وتأمــل صــيغة الأمـــر التي سبقت النداء (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) وهذا يدل على بلاغة النظم القرآني؛ لأن التصدير بالنداء يدل على أن ما يذكر بعده أمر مهم. والطاهر بــن عاشور يصرح بأن الأمر في قوله (أَوِّبِي مَعَهُ) أمر تكوين وتسخير[٣]، ولعله إلى الحقيقة أقرب.

ولا يخفــى مـــا في تكرير الحرف وتضعيف الفعل (أَوِّبِي) من الفائدة العظيمة للمعنـــى، حـــيث أنـــه دل على دقة المعنى المراد، وقد أفاد تكرير الحرف والتضعيف المبالغة في التسبيح والترديد بالذكر والتكثير في ذلك.

ومن الجدير بالذكر "أن جملة (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) مقول قول محذوف، وحذف القول استعمال شائع، أو فعل القول المحذوف جملة مستأنفة، استئنافا بيانيا لجملة (آتَيْنَا دَاوُودَ مِــنَّا فَضْلًا )" [٤]، كما أنه عطف أخف الطير وألطفه" ليكون آية سماوية على أنه يفعــل فـــي الـــسماء ما يشاء،.....فقال (والطير) أي دعوناها أيضا فكانت ترجع معه

---

(١) ينظر : المرجع السابق ٣ /٢٨١.

(٢) ينظر : المرجع السابق ٣ /٢٨١.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٥٦/٢٢.

(٤) ينظر : المرجع السابق ٢٢ /١٥٦.

الذكـــر، فـــدل قرانها بالطير على ذكرها حقيقة كذكر الطير دفعا لتوهم من يظنه رجع الصدا"[١].

كمـــا أن (الطير) منصوب بالعطف على المنادى؛ لأن المعطوف المعرف على المـــنادى يجوز نصبه ورفعه، والنصب ارجع، ويجوز أن يكون (والطير) مفعولا معه لـــ (أوني) والتقدير: أوبي معه ومع الطير، فيفيد ان الطير تأوب معه أيضا".

وتأمـــل الفعل الماضي مصحوبا بفاعله (أَلَنَّا) ولا شك أن إلانة الحديد من غير نار و لا طرق معجزة لنبي الله داود، لا تنطبق على غيره، ومما يزيد من المعجزة أن الإلالـــنة كانت من قبل الله تعالى، ولم يكلف بها أحدا من خلقه، والضمير في (له) يعود علـــى ســـيدنا داود، وتأمل المفعول الذي صيره الله في يده مثل الخيوط وهو (الحديد) الـــذي هـــو أقوى المعادن صلابة. وقوله" (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ) معطوف على قوله (آتَيْنَا) تقديره: أتيناه فضلا وألنا له ، وقيل أن المعطوف عليه، يحتمل أن يكون قلنا المقدر في (يا جبال) تقديره: قلنا ياجبال أوبي وألنا"[٢]

ثـــم "ذكـــر علـــة الإلانة بصيغة الأمر، إشارة إلى أن عمله لله فقال (أَنِ اعْمَلْ سَـــابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ) أي: أتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد فـــي يده وقلنا له: يا داود اصنع دروعا سابغات تامات وأحكم نسج هذه الدروع، بحيث تكون في أكمل صورة وأقوى هيئة"[٣].

و(أن) فـــي قوله (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ) "مصدرية على حذف حرف الجر، وقبل إن (أن) مفسرة لا موضع لها من الإعراب، وقيل هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجـــر." [٤]و العلامة أبو السعود رجح أن تكون مصدرية، وقال:" حملها على المفسرة تكلف لا يخفى"[٥]

---

(١) نظم الدرر ٦ /١٥٨.
(٢) ينظر : التفسير الكبير ٢٥ /٢١٢.
(٣) ينظر : التفسير الوسيط ١١ /٢٧٤.
(٤) ينظر : المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٨.
(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ /٣٤٢.

وقـــوله (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ) فيه إيجاز بالحذف لأن (سابِغَاتٍ) صفة لموصوف محـــذوف لظهوره من المقام، إذ شاع وصف الدروع بالسابغات، حتى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف.

وقـــوله تعالى (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ) استعارة؛ لأن" أصل السرد الخرز في الأديم وإدخـــال الخـــيط في موضع الخرز." [١] ثم استعير لنظم الحديد ونسج الدروع وإدخال الحلقـــة في الأخرى بلجمه لا طرف لها بجامع التساوي والإحكام والدقة في كل، وهذه الـــصورة الاســـتعارية ، تبـــين لنا دقة نسج سيدنا داود للدروع، بحيث تكون كل حلقة مـــساوية لأخـــتها مـــع كونها ضيقة، لئلا ينفذ منها سهم، ولتكن تحتها. بحيث لا يقلعها ســـيف، ولا تـــثقل علـــى الذراع فتمنعه خفة التصرف وسرعة الانتقال في الكر والفر والطعن والضرب في البرد والحر، كما أن هذه الصورة الاستعارية توحي بأنه لم يكن في حلقها مسامير، لعدم الحاجة بإلانة الحديد إليها، وإلا لم يكن للإلانة فائدة.

ثـــم أمر – سبحانه وتعالى – داود وأهله بالعمل الصالح فقال (وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّـــي بِمَـــا تَعْمَلُـــونَ بَـــصِيرٌ ) أي: واعملوا عملا صالحا يرضيني، فإني مطلع محيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذي تستحقونه.

وضمير (اعملوا) لداود وآله، أو له وحده على وجه التعظيم. [٢]

والأمـــر فـــي قـــوله (اعملـــوا) خرج من معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي هو التـــرغيب والتـــرهيب، ترغيبا و حثا واستزادة من العمل الصالح، وترهيبا من مخالفة أمـــره؛ لأنه مطلع على كل صغيرة وكبيرة تصدر من العباد، وسيجازي كل إنسان بما كان يعمل.

ويـــؤيد ما ذهبنا إليه قول الإمام الآلوسي( أني بما تعملون بصير) فأجازيكم به وهو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب و الترهيب. [٣]

---

(١) ينظر : لسان العرب ٦ / ٢٣٣ ( سرد ).

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ /١٥٧.

(٣) ينظر : روح المعاني ٢٢ / ١١٦.

ومــن يعــيد النظر في كلام الآلوسي يجد الآلوسي يومئ إلى أن الأمر يكون للوجوب أيضا.

ولا يفوتــنا أن نــشير إلى أن قوله (وَاعْمَلُوا صَالِحًا ) فيه إيجاز بالحذف حيث حذف الموصوف و التقدير: واعملوا عملا صالحا.

وممــا زاد مــن حدة الترغيب والترهيب، تعليله لفعل الأمر (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَــصِيرٌ ) وقد جاء هذا التعبير مؤكدا بأكثر من موكد، وهو (إن) واسمية الجملة، وذلك "إشـــارة إلى أن إنكارهم للقدرة على البعث إنكار لغيرها من الصفات وإلى أن المتهاون في العمل في عداد من ينكر أنه بعين الله" (١)

وتأمــل التعبير بقوله (بَصِيرٌ ) والبصير هو المدرك لكل موجود برؤيته ومن عرف أنه البصير راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره.

والبصير: كناية عن الجزاء عن العمل الصالح. (٢)

ولا يفوتــنا أن نــشير إلى أن قوله (وَاعْمَلُوا صَالِحًا) فيه إيجاز بالحذف حيث حذف الموصوف والتقدير: واعملوا عملا صالحا.

---

(١) نظم الدرر ٦ / ١٦٠.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ /١٥٧.

## المبحث الرابع

## خطاب الله – سبحانه و تعالى – للجبال والطير.

ورد هـذا الخطاب في قول الله تعالى {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} (٣٠) سورة ق.

**من الأسرار البلاغية في الآية:**

بـدأت هذه الآية بالظرف (يوم) ، وانتصاب (يوم) بـ (ظلام)، والمعنى ما أنا بظـلام يوم قولي لجهنم. أو بتقدير فعل: اذكر، أي اذكر يا محمد لقومك وأنذرهم حين يقـول الله تعالـى لجهـنم: هـل امـتلأت، فتجيـبه قائلة: هل من زيادة تزودني بها؟ والمـراد أنهـا اكـتفت وامـتلأت بمـا ألقـى فيها، أي لا أسع أكثر من ذلك فإني قد امتلأت" [1]

وقـوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ) كناية عن موصوف هو يوم القيامة، وأوثرت الكناية علـى التـصريح لمـا فيها من نسبة التهويل إليه، وكأنه لا يعرف ولا يميز عن بقية الأيام إلا بمقاولة الله للنار ومقاولة النار لله"[2]

و(جهَـنَّمَ) :هـي دار العـذاب مـع الكراهة والعبوسة والتجهم إظهاراً للهول بتصوير الأمر المهدد به، و تقريع الكفار وتنبيه من يسمع هذا الخبر.

وهـذا القـول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أنهـم بكثـرتهم يضيق بها سعة جهنم، فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فـيها، فحكـاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين، وتعليما لأهل القرآن من المؤمنين"[3]

---

(1) ينظر : المحرر الوجيز ٥ /١٦٥ ، و البحر المحيط ٩ /٥٣٨ ، حاشية الصاوي ٤ /١٠٢.

(2) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٤ / ١٤٩ .

(3) ينظر : التحرير و التنوير ٢٦ /٣١٧ .

وتأمــل إيثار الفعل المضارع (نَقُولُ ) الذي أفاد استحضار الصورة في أذهان الــسامعين؛ لتوقفهم أمام هذا المشهد شاخصين كأنهم يرونه رأي العين، يزيد في تهويل هذه الصورة ورود هذه الصيغة بنون الفاعلين الدالي على العظمة والجلالة.

وقــوله (هَــلِ امْتَلَأْتِ ) للتقرير فالله تعالى يقررها بأنها امتلأت أي يجعلها تقر بذلك ترهيباً للمخاطبين بعظم استيعابها.

وآثــر النظم القرآني في قوله (هَلِ امْتَلَأْتِ ) – هنا – للإشعار بكثرة من ألقى فــي الــنار ساعة يقال لها هذا القول، كما أن "هذا التعبير يشتمل على إيجاز بالحذف، للعلــم بالمحــذوف، والتقدير: هل امتلأت من الكفار والعصاة، وصدور هذا السؤال من الله لا لــيعلم مجهولا عنه – حاشا لله – بل لتخويف العباد من النار والعمل على النجاة منها"[1]

وهذا الاستفهام: (هَلِ امْتَلَأْتِ ) والاستفهام الذي بعده (هَلْ مِن مَّزِيدٍ) اختلف فيه العلماء إلى عدة:

الــرأي الأول: ذهب الزمخشري إلى أن الاستفهامين سيقا مساق التخييل الذي يثــبت المعنى في النفس فقال: "إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تــصوير المعنى في القلب و تثبيته وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتبتعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزاد على امتلائها لقوله تعالى (لأملان جهنم)، والثاني أنهــا من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد، ويجوز أن يكون هل من مزيد، استكثارا للداخلين فيها واستبعادا للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلبا للزيادة غيظا على العصاة".[2]

والرأي الثاني: "إن السؤال على حذف مضاف، أي نقول: لخزنة جهنم".[3]

وبناء على ذلك يكون السؤال ليس موجها إلى جهنم وإنما إلى الخزنة.

---

(¹) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٤ / ١٤٩.

(²) ينظر : الكشاف ٤ / ٩ ، ١٠.

(³) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان ٩ / ٥٣٨.

والـــرأي الثالث: قال:" إن الاستفهام الأول تقريري، فالمولى – سبحانه وتعالى – يقررها بأنها امتلأت أي يجعلها تقر بذلك، والاستفهام الثاني بمعنى النفي أي لا أسع غيـــر ذلـــك، وهو جواب الاستفهام الأول، وقيل: إن الاستفهام الثاني لطلب الزيادة فهو بمعنى زدني"(١)

والرأي الرابع: قال" أن السؤال والجواب حقيقة؛ لأنه لا يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذر أو استحال المعنى الحقيقي ولا تعذر ولا استحالة هنا، لأنه سبحانه وتعالى خاطب جهنم العقلاء وأجابته جواب العقلاء ولا مانع من ذلك عقلا وشرعاً".(٢)

ولعـــل الرأي الراجح أن يكون سؤال جهنم وجوابها حقيقة لا تمثيل ولا تخييل، فـــالله قـــادر على إنطاق كل شيء كما انطق الجلود في سورة فصلت ويوم القيامة يوم أهـــوال، والهول هو الأمر الغريب غير المألوف عند الناس فحري بنا آلا نختلف حول هذه الحقيقة".(٣)

كمـــا أن الذي يرجح أن يكون السؤال حقيقة، هو قول أنس بن مالك عندما بين فـــي الحـــديث الـــصحيح المتواتر قول النبي صلى الله عليه وسلم " يقول الله لجهنم هل امـــتلأت، وتقـــول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط وينزوى بعضها إلى بعض".(٤)

وإيثار أداة الاستفهام (هل) في قوله (هَلْ مِن مَّزِيدٍ) "للإعلام بأنها لا تكف عن تلقي المجرمين فهي سجن أو سجين، لا ترد مجرما و لو تراكم بعضهم فوق بعض".(٥)

---

(١) ينظر : التفسير المنير ٢٦/ ٣٠٤ ، و حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ١٠٢/٤.

(٢) ينظر : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ١٠٢/٤.

(٣) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٤ / ١٥٠.

(٤) أخـــرجه مسلم في كتاب الجنة و صفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٤/ ٢١٨٧ رقم ٢٨٤٨.

(٥) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٤ / ١٥٠.

والمزيد مصدر ميمي وهو الزيادة مثل المجيد والحميد، "ويجوز أن يكون اسم مفعول من زاد، أي هل من جماعة آخرين يلقون في".[1]

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير ٢٦ /٣١٨.

## الخاتمـــــــــة

فهاأنــذا قــد انتهــيت من هذه الرحلة المباركة في رحاب القرآن الكريم، ذلك الكتاب المبين، والكنز الثمين، والحبل المتين، والبلاغة النادرة، والآية الظاهرة، والحجة القاهرة، وقد كشفت لنا هذه الرحلة عن نتائج كان أبرزها:

١ – أن الــرأي الراجح في خطاب الله تعالى لغير العاقل أنه حقيقة، بغض النظر عن كيفية هذه الحقيقة.

٢ – أن خطــاب الله تعالــى لغير العاقل في القرآن الكريم، جاء على صور متعددة، وأشــكال متباينة، فمرة جاء على صورة النداء المصحوب بفعل الأمر، كخطاب الله تعالى للأرض وللسماء في قوله تعالى (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي ) [١]، و كخطاب الله تعالى للجبال والطير في قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِــنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ......) [٢]، ومما لاشك فيه أن ذكر الأمر عقب النداء فيه عناية واهتمام كبير بالخبر الملقى على السامع.

ومــرة جاء على صورة الأمر، بدون أن يسبقه نداء، كقوله تعالى لما خاطب الــنحل:(وَأَوْحَــى رَبُّــكَ إِلَــى الــنَّحْلِ أَنِ اتَّخِــذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُــونَ) [٣]، وقــوله تعالــى أيضا عندما خاطب السماء والأرض بالإتيان طوعا أو كــرها: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (١١) سورة فصلت.

ومرة جاء على صورة الاستفهام، كخطاب الله تعالى للنار في قوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ). [٤]

فمجي خطاب الله لغير العاقل على صورة متعددة وأشكال متباينة دليل واضح علــى بلاغــة القــرآن وإعجازه، فكل صورة قد عبر بها في محلها، مما لا يمكننا أن

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة هود.

(٢) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

(٣) من الآية ٦٨ من سورة النحل.

(٤) من الآية ٣٠ من سورة ق.

نستبدلها بصورة أخرى، لأن كل صورة في القرآن الكريم أشبه بالعضو في جسم الإنسان ، يؤدي وظيفته عندما يكون في موضعه، فإذا نقل من مكانه تغير حال الجسم واختل توازنه.

٣ – أن خطاب الله تعالى لغير العاقل في القرآن الكريم، جاء على سياقات متشابهة – أن لم تكن واحدة – وهي إثبات قدرة الله ووحدانيته وعظمته.

٤ – أن خطاب الله تعالى لغير العاقل في القرآن الكريم، جاء كان وراءه أسرارا بلاغية كثيرة منها :

أ– أن أمر الله و تكليفه نافذ في الجمادات، فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك، فلأن يكون أمره نافذا على العقلاء من باب أولى.

ب– أن خطاب الله تعالى لغير العاقل في القرآن الكريم، جاء يقرر في الوهم نوع عظمة الله وجلاله تقريرا كاملا، ويصور عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات، دقت او جلت و تصوير لسرعة وجودها.

٥ – كذلك أظهرت هذه الرحلة أن خطاب الله لغير العاقل غالبا فيه المخاطَّب وهو الله تعالى اعتمادا على السياق والأسرار البلاغية من وراء هذا الحذف، وأن الأفعال لا تصدر إلا من الله، كما أن هذا الخبر لا يكون إلا له سبحانه حقيقة،

أضف إلى ذلك أن حذفه يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة بحيث متى قيل:( وقيل يا أرض...) لم ينصرف العقل إلا إليه، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو الله تعالى.

كما أن حذفه يدل على أن خطاب ما لا يعقل من الأمور العظام التي لا تصدر غلا من قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته هو الذي فعل هذه الأشياء.

وإذا ذكر المخاطب وصرح باسمه – سبحانه وتعالى – يكون ذكره لغرض بلاغي استدعاه المقام.

٦ – يلاحظ في خطاب الله تعالى لغير العاقل كثيرة مجيء حرف العطف (الفاء) مما يدل على سرعة استجابة غير العاقل للأوامر الإلهية، وإذا جاء حرف العطف

(ثـم) فمجيئه يكون لسر بلاغي كما في قوله(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) والسر في استعمال هذا الحرف دون حرف العطف (الفاء) مثلا، أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت لسكنها لتطلب بعد الرزق في مظانه.

٧ – كـذلك أظهرت هذه الرحلة أن القرآن الكريم في أعلى درجات البلاغة من حيث انتقائه لألفاظه، واختيار معانيه، ومن حيث تراكيبه، وترتيب ألفاظه، ومن حيث الـصور البيانية التي جاءت في ألفاظه وعبارته، حتى إن كل صورة بيانية فيه كانت تصور المشهد وكأنه رأى العين أمام القارئ.

٨ – كـذلك أظهرت هذه الرحلة أن الآية القرآنية عبارة عن لوحة فنية رائعة متكاملة مـرتبط أولها بآخرها، لا نستطيع أن نقدم ما أخر منها، ولا نؤخر ما قدم منها، ولا نذكـر ما حذف ولا نحذف ما ذكر، ولا نوجز فيما أطنب فيه، ولا نطنب ما أوجـز فيه، ولا نستبدل كلمة بأخرى، فلكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها موقف، ولا عجب في ذلك فهو {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (١) سورة يونس.

**وخـتاماً:** أسـال الله العلى القدير أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يـتجاوز عن زلل اللسان وعثرة القلم، وقلة الفهم، ونقصان التدبر، وعن التجرأ في الكـلام عـن قـرآنه العظيم بدون أن نملك وسائل العدة الكافية للخوض في هذا البحر الضخم ، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

**{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**

المصادر والمراجع:


١ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ، دار الفكر، د ت.

٢ – أساس البلاغة، للزمخشري ، ط٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ م.

٣ – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د صباح دراز،ط١ ،مطبعة الأمانة، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

٤ – إعراب القرآن الكريم وبيانه، أ محي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير،ط٤، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

٤ – الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي،ط٣، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.

٥ – البحر المحيط،لأبي حيان، دار الفكر ،١٤١٢ هـ /١٩٩٢م.

٦ – البرهان في علوم القرآن، للزركشي،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

٧ – تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.

٨ – التحرير و التنوير ، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

٩ – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة ،ط١ ، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

١٠ – تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حفني البروسوي، ط٧ ،دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١١ – تفسير الطبري( جامع البيان عن تأويل القرآن) ، الإمام بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،ط١ ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

١٢ – التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، للرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٢م.

١٣ – التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج ، أ.د وهبه الزحيلي ، دار الفكر.

١٤ – الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٥ – الجدول في إعراب القرآن الكريم و صرفه و بيانه، تصنيف محمود صافي ،ط١ ، دار الرشيد، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

١٦ – حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان.

١٧ – حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

١٨ – حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، المكتبة الإسلامية.
١٩ – دليل الحيران في الكشف عن آيات القرآن، ترتيب الحاج صالح ناظم، طبع على نفقة محمد على صبيح وأولاده.
٢٠ – روح المعاني ، للآلوسي ، ط٤، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢١ – الأشباه والنظائر في النحو ، للسيوطي،ط٢ ، دار المعارف العثمانية، ١٣٦٠هـ.
٢٢ – صحيح مسلم( كتاب الجنة وصفها و نعيمها) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
٢٣ – شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤ – فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي البخاري، المكتبة العصرية،بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢٥ – الكشاف ، للزمخشري ، دار الفكر.
٢٦ – لسان العرب ،لابن منظور ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
٢٦ – المحرر الوجيز، لابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد،المكتبة العصرية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٢٧ – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ، لبنان.
٢٨ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.